من الدرس البلاغي

في

الخطاب القرآني

obeikandl.com

obeikandl.com

من الدرس البلاغي في الخطاب القرآني

القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣] (١) ، هو القمة في البلاغة والغاية في الفصاحة ، نزل بلسان عربي على قوم صناعتهم البيان ومحكم الكلام فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولم يثبتوا أمام عظمة التنزيل ، قال تعالى :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة البقرة:٢٣] (٢)

وبلغ القرآن في التحدي مداه فبين للعرب - أرباب الفصاحة – أن الإنس والجن لا يقدرون على الإتيان بمثله ، يقول المولى عز وجل :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الإسراء:٨٨] (٣) .

وأسلوب القرآن العظيم – بما فيه من متانة سبك ، وجودة صياغة – نمط إلهي خاص ، لا هو بالشعر ولا هو بالنثر" وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن ، وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسرار دقائقه .. كان القرآن جديدا في أسلوبه ، جديدا فيما يدعو إليه ، جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا ، لغته هي اللغة العربية التي كان ينطقها الناس " (٤) .

لقد فتح هذا الأسلوب القرآني الباب على مصراعيه أمام الباحثين وعلماء اللغة منذ قرون طويلة بدءا من الجرجاني في دلائل الإعجاز، وسر الفصاحة لابن

سنان الخفاجي ، ومن جاء بعدهم ، حتى وقتنا الحاضر. نهلوا – جميعا – من منهل الذكر الحكيم العذب ، حتى امتلأت أوعيتهم ، وما نضب المعين العذب ، بل ظل سائغا للشاربين ، وكأنه يزداد ثراء وعذوبة كلما نهل منه الناهلون ، وشرب منه الشاربون ،فقد بحثوا في أسرار فصاحته ، فأدركوا القليل وبقي الكثير ، وسيظل هكذا في عظمته وتفرده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وما من موطن للخطاب القرآني إلا نجد فيه للبيان الرباني الملاءمة ومراعاة ما يستدعيه الموقف ، ففي سورة الضحى التي نزلت في أعقاب تأخر الوحي في النزول على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .. جاء الخطاب القرآني تسرية وتطييبا لخاطره عليه السلام ، فما المنهج الذي سلكته السورة ؟

إنها تبدأ بالقسم ، وقسم ممن ؟ من خالق الأرض والسماء ، يقسم بآيتين عظيمتين من آياته في خلقه ، يقسم بالضحى وما فيه من إشراق وضياء وسمي عليها تقوم عمارة الكون ، ويقسم بالليل وما فيه من دلائل على عظمة الله في خلقه فالليل سكن وراحة للإنسان ولكثير من المخلوقات للاستعانة على الكد والكدح وكسب الرزق واستمرار الحياة .

ثم انظر إلى الاختيار الإلهي للقسم بالضحى والليل بالذات ، نجد أن دورة الحياة وما فيها من أمور مادية أو معنوية لا تتم إلا في زمنهما: الليل أو النهار وكأن الآية الكريمة تبغي من خلال هذا القسم طمأنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أن ربه الخالق لم ينسه مطلقا ، وتؤكد الآية ذلك – أيضا – بمجيء جواب القسم منفيا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [سورة الضحى:٣]، كما جاء العطف : ما ودع ، وما قلى ليدل على الشمول ويبعد عن الذهن أية مظنة لأي نوع من أنواع الهجر والابتعاد ، وتثبت قربه صلى الله عليه وسلم من ربه .

ويستمر الخطاب القرآني في أسلوب التسرية ومنهجها الرائع بالعطف بجملة مؤكدة باللام ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة الضُّحى:٤]

يؤكد فيها رب العزة أن عاقبة ذلك خير، وأن آخر هذا الأمر فيه الفلاح وفيه السعادة، أما وجود اللام والحرف سوف والفعل المضارع فبيان لزيادة عطاء الله له في قابل أيامه. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [سورة الضُّحى:٥]

ونستطيع أن نرصد هذا النهج القرآني للتسرية من خلال الخطاطة التالية:

أداة القسم ↓	المقسم به ↓	جواب القسم
الواو	﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [سورة الضُّحى:١-٢]	﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [سورة الضُّحى:٣]

والليل لما فيه من سكن وراحة جواب القسم منفي يؤكد منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند رب العزة.

جملة مؤكدة باللام	جملة معطوفة مؤكدة باللام
﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة الضُّحى:٤]	﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [سورة الضُّحى:٥]

وبعد أن أكدت الآية الكريمة منزلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه وأن تأخر الوحي لا يعني أن الله سبحانه وتعالى ودعه وقلاه، تعود الآيات إلى

تذكير سيد الخلق صلى الله عليه وسلم بنعم الله عليه ، ورعايته وحفظه ، وما أفاء عليه من خير؛ تذكره بثلاثة أمور مهمة في حياته :

- فقد حفظه الله في يتمه وتولاه برعايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [سورة الضُّحى:٦].
- وهداه الله برسالة الإسلام ، وأبعده عن الضلال الذي ساد في قومه ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [سورة الضُّحى:٧]
- وأغناه الله وأعز جانبه ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [سورة الضُّحى:٨]

والآية الكريمة إذ تذكر بنعم الله الثلاثة على نبيه ، تدعوه وتدعو المسلمين جميعا إلى ثلاثة أمور اخرى متعلقة بها :

- تدعو إلى رعاية اليتيم والأخذ بيده والمسح على رأسه رقة وعطفا ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [سورة الضُّحى:٩]
- وتدعو إلى إكرام السائل وإجابة طلبه وعدم نهره ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الضُّحى:١٠]
- وتدعو إلى شكر نعمة النعمة وتذكر فضل الله بالحديث عنها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [سورة الضُّحى:١١]

ونستطيع أن نرصد هذا النهج التذكيري من خلال الخطاطة التالية :

الأمور التي ذكرت بها الآية الكريمة	ما يترتب على هذه الأمور
- يتم أعقبه إيواء	- رعاية اليتيم والعطف عليه .
- ضلال أعقبه هُدى	- تذكر نعمة الله وشكرها والتحدث بها .
- احتياج أعقبه غِنى	- إكرام السائل وعدم إهانته .

openkanal.com

وواضح ما في هذا التذكير بنعم الله من طمأنة النبي الكريم إلى علو مكانته وأن الله يرعاه ، وأن عونه دائم ، وفضله سيستمر حتى ينعم بالرضا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [سورة الضُّحى:٥]

ويستمر منهج التسرية نفسه في سورة الشرح ، فتذكر الآيات سيد الخلق بنعمة كبيرة أنعمها الخالق جل وعلا عليه وهي شرح الصدر، وإزالة ما به من بغضاء وأدران ، وجاء التذكير معتمدًا على الاستفهام المنفي:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [سورة الشَّرح:١]

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [سورة الشَّرح:٢] وهو استفهام تقريري ، وعند ذكر الشرح استخدم الفعل المضارع (نشرح) لإفادة الاستمرار ، وعند ذكر إزالة الوزر استخدمت الآية الفعل الماضي (وضعنا) ليدل على التحقق ، والخطاطة التالية تبين ذلك :

استفهام منفي ↓	دلالته ↓	جملة معطوفة	دلالته
﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [سورة الشَّرح:١]	التقرير والإثبات	﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [سورة الشَّرح:٢]	إبراز كثرة نعم الله على نبيه

استخدام المضارع

استخدام الماضي يفيد التوكيد والإثبات يفيد الاستمرار وتتوج الآيات الكريمات هذا التذكير الطيب بنعم الله بقوله تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [سورة الشَّرح:٤]

قال قتادة: " رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا وينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"(٥).

وبعد هذا التذكير يأتي دور التوكيد في قوله تعالى :

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ [سورة الشَّرح:٥] ثم التكرار لزيادة التوكيد ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [سورة الشَّرح:٦]

وكأن الآية الكريمة تجزم للبشر جميعا أن العسر دائما يعقبه يسر وانفراج أزمة ووصول إلى بر الأمان ، وما على الإنسان إلا أن يقوم للعبادة نشيطا فارغ البال وأن يخلص لربه النية والرغبة .

وظواهر الدقة الأسلوبية في القرآن الكريم لا يحصيها العد ، منها قول الله تعالى :﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [سورة الرحمن:٥] (٦) الذي تتجلى فيه روعة الصياغة ، فالفعل (حسب) مصدره حسابا وحسبانا أي عدّه وأحصاه وقدّره (٧) والملاحظ هنا أن الحسبان تعني خصوصية الحساب ودقته ، فمنازل القمر والشمس مقدرة بحسابات متناهية في الدقة ،إذ عليها يترتب نظام الكون وسير الأفلاك والنجوم والحياة على سطح الأرض ، وأن أي خطأ ضئيل يؤدي إلى خلل وارتباك وكوارث لا تحمد عقباها ، ذلك أن مادة (فعلان) في المصدر لها معنى الخصوصية :

- غفر (غفران) .

- شكر (شكران).

- حسب (حسبان).

فالفعل (قرأ) مصدره : قراءة (أية قراءة في أي كتاب) ، ولكن في قولك : (قرآن) ينصرف الذهن إلى التلاوة في كتاب الله المنزل المسمي القرآن الكريم.

وفي قول الله تعالى :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الكهف:٤٠] (٨).

حسبانا : معناها (ضرر و مصيبة) ولكن في هذه الآية الكريمة نجد معنى خاصا هو " أي عسى الله أن يرسل عليها مصيبة بقدر هذه الأيكة دون زيادة أو نقصان " (٩).

واستمرارًا لدقة الصياغة الأسلوبية ، ففي نهايات الآيات داخل السور ما يبهر العقل ، ويأخذ بمجامع القلوب ، ففي سورة سورة الإسراء وردت صيغة (المفعول المطلق المؤكد للفعل) عشر مرات ، يلاحظ أنها جاءت في الأمور التي تقتضي التوكيد سواء أكانت أمورًا مادية أم معنوية ، لذا فهي تؤكد وقوع الشيء وتحققه غاية التحقق ، واستمع إلى قوله :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء:١٢] (١٠) تجد أن المولى جل وعلا يؤكد لنا دون أدنى مجال للشك أنه فصل كل شيء ووضحه في كتابه العزيز.

وفي قولـــه : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء:١٦] (١١) تؤكد الآية الكريمة حقيقة الإهلاك ووقوعه للقرية التي يعمها فسوق مترفيها.

وللقرآن الكريم عظمته ودقته في تشكيل الأفعال والمصادر، ففي قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٣١] (١٢).

جاء المصدر (خِطئا) بالكسر، لأن (الخِطاء) بالكسر تعني الذنب الكبير المتعمد (١٣)، ذلك أن من يقتل أولاده خشية الفقر يكون متعمدًا، أما (الخطأ) و(خطئا) بفتح الخاء والطاء في الفعل والمصدر قد يكون الأمر متعمدا أو غير متعمد.

وتحمل نهايات الآيات القرآنية من الأسرار ما يثير العجب ويخلب الألباب ففي قول الله تعالى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٤٤] (١٤)

انتهت الآية الكريمة بقوله: إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فما علاقة هذه النهاية بمضمون الآية؟ تخيل أنك وأنت جالس في منزلك أو وأنت سائر في الطريق تسمع كل ما حولك يسبح: المقعد يسبح، والطاولة تسبح، والحائط يسبح، والأدوات تسبح، فماذا يحدث لك؟ ستصاب بالذهول، وربما يختل العقل!! لذلك كان الله حليما بنا ومن حلمه أن جعلنا لا نفقه ولا نسمع تسبيح الأشياء من حولنا، حلما ورحمة بنا من الفزع والاختلال، سبحانه جل شأنه في علوه، ونفعنا بمحكم كتابه.

الهوامش

(١) سورة فصلت آية ٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣.

(٣)سورة الإسراء آية ٨٨.

(٤) الأدب الجاهلي ، طه حسين ، ص ٧٢، الطبعة السادسة عشرة ، دار المعارف ١٩٨٩.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ، د/ محمد سليمان الأشقر، ص ٦٥٣، مجلد ٣، ط ٨ دار الجيل ، بيروت ١٩٩٥.

(٦) سورة الرحمن آية ٥.

(٧) المعجم الوسيط ج١، ص١٧١.

(٨)سورة الكهف آية ٤٠.

(٩) خواطر التفسير للشيخ محمد متولي الشعراوي (حديث مرئي في التلفاز).

(١٠) سورة الإسراء آية ١٢.

(١١)سورة الإسراء آية ١٦.

(١٢) سورة الإسراء آية ٣١.

(١٣) المعجم الوسيط ج١ ص ٢٤٢ .

(١٤) سورة الإسراء آية ٤٤.